الملك فيصل الأول (1883-1933)
أدواره التاريخية ومشروعاته النهضوية[1]

د. محمد فتيني محمد كنباش

[1] أستاذ مساعد في قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الحديدة.

مجلة آداب الحديدة - العدد الخامس عشر (أكتوبر – ديسمبر 2022م) كلية الآداب - جامعة الحديدة
ISSN:2710-1312 (Online) ISSN:2710-1304 (Print)http://al-adab-journal.com

يواصل الدكتور سيار الجميل إسهاماته العلمية منذ حصوله على درجة الدكتوراه عام 1982، فهو لا يتوقف بين عام وآخر عن رفد مكتبتنا العربية بكتاب جديد، ولعل أهم ما يميز هذه الإسهامات هو ما تنطوي عليه من رؤية رحبة في قراءة التاريخ، إذ يأخذ دومًا في اعتباره عند معالجة الأحداث والوقائع مختلف السياقات والمرجعيات الكامنة خلفها والموجهة لمسارها. وفي كتابه الجديد "فيصل الأول" الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت في أكتوبر 2021 في (432 صفحة) يأخذنا في رحلة علمية ثرية لسيرة فيصل بن الحسين، توزعتْ على مقدمة واثني عشر فصلاً وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع، تناول فيها تجربة فيصل الأول التاريخية في سوريا والعراق. ومن هذه الناحية، فالكتاب يعد امتدادًا لكتبه السابقة في دراسة تلك الحقبة المبكرة من أزمنة الصعود العربي الحديث، وتلك طبيعة البحث الأصيل الذي لا يعرف حدودًا يتوقف عندها، ولا قيودًا تعوق انطلاقه وتقدمه.

يروي هذا الكتاب سيرة فيصل الأول التي يعتبرها المؤلف «قصة دراماتيكية معقدة ومتشابكة ومزدحمة بالتناقضات الداخلية والخارجية تترجم حالة النصر والفشل في تجربة تاريخية عربية حدثت إثر الحرب العالمية الأولى»(ص25). كما يسعى إلى إعادة تقويم دوره الحاسم في التطورات السياسية أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها وحتى رحيله عام 1933، إذ بقي تأثيره كبيرًا في المنطقة طوال القرن العشرين. وقد كان فيصل الأول، كما يصفه المؤرخ مجيد خدوري، يتمتع بأمرين اثنين: أولهما واقعيته مع المنطق، إذ يعدُّ صاحب مدرسة براغماتية (=نفعية) متفاعلة مع ضرورات الواقع بمنطقية عالية بعيدًا عن الشعارات والأوهام. وثانيهما نظرته البعيدة إذ امتلك أفقًا واسعًا للنظر في الأمور، ولا يمكن مقارنته بزعماء لهم رؤيتهم الضيقة وذهنيتهم الضحلة.

يصرّح المؤلف في المقدمة أن إحدى المهمات التي يضطلع بها كتابه هي إعادة اعتبار لفيصل الأول تاريخيًا، فلم يُكتب لتعداد مآثره والتغني بأمجاده، أو تجريحه وتعداد أخطائه، ولكنه يأتي من أجل أن تدرك الأجيال القادمة أن زعيمًا مثل فيصل الأول كان الأقرب إلى الإيجابية منه إلى السلبية، وأنه سخر حياته كلها من أجل أن يبني شيئًا مصيريًا للعرب، وسواءً نجح أم فشل في مهمته، فإنَّ حجم أعماله أكبر بكثير من سنوات عمره القصيرة. وضمن هذا المسار من إعادة الاعتبار، يكشف لنا الكتاب عن معلومات تاريخية جديدة وغير معروفة لدى المؤرخين سابقًا.

فيصل الأول ووصوله إلى الزعامة

عالج المؤلف في الفصل الأول المعنون بـ "التكوين: تاريخ حكاية فيصل" العوامل التي تكاتفت وجعلت من فيصل الأول زعيمًا في مطلع القرن العشرين، والتي تتمثل بالبيئة التي عاش فيها منذ ولادته في الطائف في 18 مايو 1883، في أسرة شرافية حجازية تمتد بصلتها إلى الأسرة

الهاشمية الشريفية في الحجاز. قضى فيصل الأول شطرًا من سنوات الطفولة ومرحلة الشباب في العاصمة العثمانية إستنبول (1891-1910)، وهناك حرص والده الشريف حسين بن علي (1854-1931) على تربيته وتعليمه فألحقه بمدرسة غلطة سراي التي تُعدُّ المدرسة الأشهر في إستنبول، فتثقف فيها على مهل من خلال مناهج مدنية قوية، وتفتَّح ذهنه منذ مراهقته على الحياة، في عاصمة تاريخية تزخر بالتواريخ المتنوعة. وبفضل المدة التي قضاها في إستنبول ثم الخبرة التي اكتسبها من المهمات التي أسندها إليه والده بعد توليه إمارة مكة عام 1908، أصبح فيصل الأول يمتلك مهارات وثقافة أهلته لإقامة العلاقات والتواصل مع رجال القبائل في أعماق البادية وكذلك مع المبعوثين الأجانب.

وقد استأثر المبعوث الإنجليزي توماس لورانس (1888-1935) المعروف بـ "لورانس العرب" باهتمام المؤلف في غير فصل من الكتاب، وسعى من خلال ذلك إلى الكشف عن طبيعة دوره في أحداث تلك المرحلة، فالدور الأسطوري الذي رسمه لورانس لنفسه في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" كان مجرد دور سطَّره قلم كاتب بارع على الورق ورسخته السينما في المخيال الغربي، مبينًا أن دور لورانس في الثورة العربية الكبرى لا يتعدى دور المترجم والمساعد الذي تميز بسرعته في الاتصال، لكنه كان فعالاً بالنسبة إلى ما تريد بريطانيا تقريره. وقد جلا هذا الأمر بالعودة إلى عدد من الوثائق والتقارير والمكاتبات التاريخية، التي كشفت بوضوح بأن فيصل الأول كان يرسم خططه بمعية ضباط أركانه العراقيين، استراتيجية الحرب وتقدم الثورة العربية.

الثورة العربية ومؤتمر فرساي

اندلعت الثورة العربية الكبرى في 10 يونيو 1916، وقد نُصِّب فيصل الأول لقيادتها العسكرية، ونجح في تسنم تلك القيادة والسير بها لتحقيق أهداف الثورة؛ وتم له هذا الأمر نتيجة لعلاقاته القوية بالشباب العرب السوريين والضباط العراقيين، فضلاً عن المساعدات اللوجستية التي حصل عليها عن طريق لورانس العرب من البحرية الملكية البريطانية. وقد حرص فيصل الأول على الاستفادة من تلك المساعدات وتوظيفها في الدفع بمسار الثورة، مما مكنه بعد مرور أقل من عامين على انطلاقتها من دخول دمشق منتصرًا في أكتوبر 1918. وفي إطار هذا المحور، يبدي المؤلف استغرابه أنه وبعد مرور مائة عام على انطلاقة تلك الثورة لا تزال هناك أقلام تضع علامات الاستفهام حول هذه الثورة وتشكك في جدواها ومكتسباتها. في حين أننا إذا نظرنا إلى هذه الثورة في إطارها التاريخي سنجد أنها مثلت حدثًا تاريخيًا مهما في حياة العرب؛ إذ كانت تستهدف إقامة دولة عربية موحدة تمتد من شمال حلب والموصل نزولاً إلى عدن في اليمن جنوبًا، ومن جبال زاجروس والخليج العربي شرقًا، إلى البحر المتوسط والبحر الأحمر غربًا. فضلاً عن البعد القومي لها، فقد كانت أول تجربة عربية فريدة من نوعها في

التاريخ الحديث لتأسيس كيان قومي عربي والتحرر من الهيمنة العثمانية سياسيًا وثقافيًا خاصة بعد وصول الاتحاديين إلى السلطة في إستنبول عام 1909، ومحاولتهم التوسع في فرض اللغة التركية على المدارس ومختلف الشؤون المحلية في الولايات العربية الخاضعة لهم، بعد أن كان استخدامها محصورًا في الإدارة الحكومية. لقد جاءت الثورة العربية خدمة للقومية العربية مستندة في ذلك إلى ركيزة حقيقية هي "العروبة" التي انبثقت وأصبحت مشروعًا خالصًا في المؤتمر العربي الأول بباريس عام 1913، كما كانت في الوقت نفسه خيارًا ضروريًا للانسلاخ عن "العثمنة" التي كانت حكومة الاتحاديين العثمانية تحاول ترسيخها بالقوة.

يتناول المؤلف في الفصلين الثالث والرابع محطة مهمة ضمن مسيرة فيصل الأول، مبرزًا التحديات التي واجهها فيصل الأول إزاء التنين الاستعماري المتحالف، البريطاني والفرنسي، ومن ورائهما الصهيونية العالمية. وتتمثل هذه المحطة في الذهاب إلى مؤتمر فرساي وإقامة حكومة عربية في سوريا، وقد كان مؤتمر فرساي 1919 عبارة عن مائدة لاقتسام أشلاء الدولة العثمانية المهزومة بتحالفها مع الألمان في الحرب العالمية الأولى من جهة، وإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين من جهة أخرى. لكن فيصل الأول واجه ذلك التغول الاستعماري بذكاء وصبر، وكان همه كيف يتمكن من إفهام الغرب والأمريكان مطالب العرب في نيل استقلالهم من بعد ثورتهم الكبرى، وبرغم موقف فرنسا الرافض لحضوره المؤتمر، إلا أنه وبدعم بريطانيا تمكن من الدخول إلى قاعة المؤتمر وإلقاء خطابه. لكن، كان عليه في المقابل أن يقبل سيطرة فرنسا على سوريا دون أن يعلن رفضه أو يندد بذلك، فلم تكن بريطانيا مستعدة لإذكاء الخصومة مع الفرنسيين حول مشكلة سوريا.

ينظر الدكتور سيار إلى مشروع "الولايات العربية المتحدة" الذي قدَّمه فيصل الأول باعتباره أهم مشروع نهضوي عربي في تلك الحقبة المضطربة، وكان الرجل يطمح أن يكون مشروعًا فيدراليًا على غرار الولايات المتحدة الأمريكية، حريصًا على مبدأ الاستقلالية الذي يشكل إطارًا يجمع بين هذه الولايات. لكن هذه التجربة العربية التي نادى بها فيصل الأول لم تستمر، ولم يكتب لها النجاح؛ بسبب تغول فرنسا وشهيتها المفتوحة لالتهام أهم شرائح الوليمة العثمانية، إذ لم تمض أشهر على تنصيب فيصل ملكًا على سوريا في مارس 1920 حتى تدافعت القوات الفرنسية للدخول إلى دمشق، وكانت موقعة ميسلون في 25 يوليو 1920 نهاية الحكومة الفيصلية. لقد كانت معركة غير متكافئة، لكن أحد أهم أسباب الهزيمة يعود إلى هشاشة الموقف العربي العسكري والسياسي معًا، ووهن البيئة العربية التي تصدَّعت في مفاصلها وتفاصيلها. ويرى المؤلف أن هذه الهزيمة قد شكَّلت «أزمة في الضمير والوجدان العربيين، ترجمها وعكسها إنتاج فكري غزير بحاجة اليوم إلى فحص ودراسة وتدبر» (ص104). فضلاً عن معاهدة سايكس بيكو 1916، التي لم تجزئ الواقع العربي فحسب، بل نجحت في اغتيال الحلم

والحكم معًا؛ حلم المجتمع العربي المتمثل بزعاماته ورجالاته ونخبه ومفكريه ومثقفيه، وحكم الدولة المتمثل بأول تجربة عربية مؤسساتية مستقلة طموحة.

فيصل الأول: وتأسيس العراق المعاصر

انتظمت بنية كتاب الدكتور الجميل في مسارين: موضوعاتي وتاريخي يتداخلان ويتآزران في توليف بديع يشد تلاحم الفصول ويمنح تتابعها قدرًا كبيرًا من الاتساق والسلاسة في سرد التجربة السياسية لفيصل الأول. ويأتي الفصلان السادس والسابع لتغطية فترة التمفصل بين مرحلتين من تجربته السياسية، مرحلة الحجاز وسوريا ثم مرحلة حكم العراق. يتعرض فيهما المؤلف بالتفصيل لسِيَر عدد من القادة والسياسيين من العراقيين والعرب الذين التحقوا بفيصل الأول أثناء الثورة وعملوا معه وكان لهم دور مؤثر في مساندته في كلتا المرحلتين، بالإضافة إلى وقفة مطولة عند مؤتمر القاهرة في مارس 1921 الذي خصص لتحديد مستقبل العراق. وكان اختيار فيصل الأول لعرش العراق نتيجة للخبرة التي اكتسبها فعليًا أثناء حكم سوريا، والمرونة والحنكة اللتين أبداهما في التعامل مع الأطراف الداخلية والخارجية، والأهم من ذلك، إجماع إرادة العراقيين على اختيار الأمير فيصل الأول باستثناء أصحاب المصالح الخاصة ممن لا يؤمنون بالعراق وطنًا وهوية.

سعى المؤلف في الفصول اللاحقة إلى الكشف عن جوانب النجاح التي أحرزها فيصل الأول في حكم العراق، ففي سنوات حكمه القصيرة أسهم في تحرير العراق من الانعتاق السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وتمثل ذلك في عقد معاهدة مع البريطانيين لإنهاء حقبة الانتداب والحصول على الاستقلال، وهو ما مهد لدخول العراق لاحقًا عضوًا في عصبة الأمم في 3 أكتوبر 1932. كما ركز على تعضيد اللحمة الوطنية بين فئات الشعب ضمن وحدة سياسية وهوية تجمعهم هي العراق بعد أن ظلت موزعة ومجزأة طيلة أربعة قرون داخل ثلاث ولايات أنشأها العثمانيون: بغداد والبصرة والموصل، ومن ثم عمل على التقريب بين مختلف مكوناته والجمع بين ولاءاتها والدفع بأفرادها إلى المشاركة في الحياة السياسية والوظيفية، ونتج عن ذلك تكوين طبقة جديدة مختلطة من ورثة وأعيان وضباط شريفيين وضباط موالين وموظفين إداريين قدماء ورجال قانون وأفندية ومعلمين وقضاة سابقين وشيوخ عشائر متنفذين وبعض المثقفين. وقد عبَّرت طبيعة حكمه عن أصالته ودماثته العربية العريقة في السياسة والحكم تجاه أبناء رعيته جميعًا، دون أي تمييز عرقي أو ديني.

اهتم المؤلف في الفصل الأخير بالقضايا التي أثيرت بعد رحيل فيصل الأول كالمذكرة التي ينسب إليه كتابتها قبل عام من رحيله والمتضمنة رؤيته المستقبلية لتجديد مؤسسات الدولة، ومناقشة فرضية تعرضه للسم في مقره الأخير في بيرن السويسرية، وقصة السيدة بابسي بافري. ويخلص المؤلف في هذه المحطة إلى القول إن أغلب الأدبيات تؤكد أن فيصل الأول عشق

العراق وأحب العراقيين الذين منحوه ولاءهم وناصروه في متاعبه ضد الإنجليز من أجل الاستقلال، ولم يكن حبيسًا في بيته في بغداد، فقد تجول في أرجاء العراق، والتقى الناس فيه وعاش مع الجميع دون تكلفة أو غرور. ولم يرحل في 8 سبتمبر 1933، في بيرن بسويسرا، إلا بعد أن قدَّم إلى العراق والأمة العربية الكثير، وكانت آخر كلماته وأقواله: «لقد قمت بواجبي، فلتعش الأمة من بعدي بسعادة وقوة واتحاد» (ص387).

إن صدور هذا الكتاب في هذا التوقيت ينطوي على عدد من المعاني التي تقصَّدها الدكتور الجميل، فمن جهة بدا كما لو أنه أراد به الاحتفاء بالذكرى المئوية لاعتلاء فيصل بن الحسين عرش العراق في 23 أغسطس 1921، ومن جهة أخرى هدف إلى إنعاش ذاكرتنا التاريخية وخاصة الأجيال الجديدة بإحياء سيرة زعيم عربي كانت ملئ السمع والبصر في النصف الأول من القرن العشرين. وقد فعل ذلك بروح الباحث ورؤية المؤرخ الحصيف لا على سبيل المدح والتمجيد وإنما من منطلق التوثيق العلمي الدقيق لسيرة الرجل وتجربته السياسية وإخضاع كل الوثائق والمذكرات الخاصة بالمرحلة للقراءة المتأنية والمقارنة دون تحيز أو تهاون.

ويظهر هذا المنحى بوضوح في متن الكتاب وهوامشه حيث عاد المؤلف إلى مئات المراجع وعشرات الوثائق والمذكرات خاصة الصحف والمجلات الصادرة في تلك الفترة التي مثلت زادًا مهمًا للباحث في التوثيق الحي لإيقاع الحياة السياسية والاجتماعية في عهد فيصل الأول. وقد مثَّل هذا التنقيب الدؤوب في المصادر والمراجع العربية والأجنبية والقدرة الفذة على التحليل والاستنتاج أبرز أدوات الباحث في الرد على المؤرخين الذين اكتفوا باستيراد تصوراتهم عن تجربة فيصل الأول من الكتابات الأوروبية. أعتقد أن المدرسة التاريخية العربية سترحب بشدة بظهور هذا السفر التاريخي الذي يمثل إضافة علمية جديدة في حقل دراسات النهضة العربية الحديثة، كما سيجد القارئ العام العربي فيه نافذة للإطلال على واحدة من ملاحم النهوض العربي في مطلع القرن الماضي.